البيوت الشامية

نسائمها تجمع بين الشاميين...

الجزء الرابع

بقلم الباحثة نبيلة حسن القوصي

"وأرى دمشق كأنها طائر حط ليستريح، جسده وسط السور وجناحاه ممتدان إلى ميدان الحصى، وحي المهاجرين، أو كأنها عروس أتعبتها حفلة الزفاف فنامت: رأسها على ركبتي قاسيون وقدماها في قرية القدم وقلبها حيال قلب البلد الذي يهفو إليه كل مسلم، وهو الجامع الأموي.. والقرى في الغوطة متوارية من الحياء وسط الأشجار، تتستر بها حتى لا ترى تخشى أن تلمحها عيون الرجال ... فدمشق هي الحياة الحب والحب حياتي".

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

ويقول البدري "رحمه الله" في كتابه (نزهة الأنام في محاسن الشام):

(أي والله...

وما قلت أيه بعدها لمحدث من الناس إلا قال قلبي آهـا

أستغفر الله هي مسقط رأسي ومجمع أهلي وناسي وملعب خلاني وإخواني

سقا الله شاما كان فيها اجتماعنا بأحبابنا الناءين مغدوقا سكبا

منازل أحبابي ومربع جيرتي وأوطان إخواني ومن كان لي تربا

لعمري لئن شط المزار أصبحت منازلهم شرقا ومنازلنا غربا

فإني على بعد الديار وقربها أسر لهم حبا وأبدي لهم حبا

عسى ما مضى من شملنا أن نعيده ونصبح في أفق ونمسي به شهبا

فأجبتك أيها السائل إذ هيجتَ عندي من الدموع بحور الاشتياق، وواسيتك أيها العاشق إذ أتيتك بخبر المعشوق، ولعل الخبر يكون وصله في التلاق، وقد فصّلته لك في هذه الأوراق).

فلتمشِ أيها السائح فوق أرض دمشق مشيةَ خاشعٍ متواضع لله، شاكراً له أن اجتباك فأقامك فيها، تسعى لإعمارها بما يحب ويرضى، فنصيحة النبي الكريم للصحابة في قوله: ((عليكم بالشام فإنها خيرة بلاده من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده))، لَدليل على أهمية أرض الشام، ومن المؤكد أنه يُسكنها خيرة القائمين بما يحب الله ورسوله.

ويا أسفي! إذ ضيع أهل الشام عنوانهم في الحب والصدق وفعل الخير.. أين هم الشاميون الذين نالوا شرف مديح نبيهم لهم؟ وأين هم مِن مساجدهم التي تركوها مهجورة تبكي الإعراض عنها لفراقٍ مبعثُه الأهواء والأحقاد ؟

(انظر إلى هؤلاء اليوم وأستحضر حالهم بشفقة، وأحاول أن اعتصر ذهني لأتخيل مشاعرهم وقد فرج الله سبحانه وتعالى عن البلاد والعباد فعادو إلى بلدهم – بعد أن تنكروا له – ليحتضنهم من جديد...

ترى.. ما جوابهم لأبناء وطنهم الذين واجهوا الموت وشظف العيش نيابة عنهم؟

ترى ما جوابهم للشهداء الذين تركوهم وحيدين يبذلون دماءهم واكتفوا بتتبع أخبارهم من خلال الشاشات؟

ترى هل سيستسيغ أحدهم فاكهة الشام التي سقيت بدماء الشهداء بعد اليوم، أم ستغصُّ بها حلوقهم؟)

بقلم **منتصر عبد الدايم**/ إلى من يريدون قطف ثمار لم يزرعوها

أستغفر الله من ذنوب نعلمها وذنوب لا نعلمها... فقد كان الحب مصدر وسر حياة أهل الشام! سلوا عنا الإنسانية، فنحن من كنا نعلّم الناس القيم والمثل من منهج خير البرية... ..

ولنمضِ معاً أيها الأخوة الكرام في رحلة رائعة، ندع فيها الروح والفؤاد يتلمس أروع النسمات.. ولنسأل المولى عن نية غفلنا عنها في كيفية إعمار الشام، ودع عنك رمي مسؤولياتك على عاتق غيرك...

لنطرق معاً باب المعرفة والمتعة متجهين لزيارة بيت "دمشقي شامي"، تغمرنا نسمات حب التعلم والمعرفة، ولساننا يلهج بالدعاء لمن نحب أو لا نحب... فأن تحب لغيرك ما تحب لنفسك هو "عنوان أهل الشام"، توارثوه من سلفهم الصالح المرسخ لمنهج النبوة المحمدي فوق هذه الأرض المباركة.

ولنبدأ من أول تفاصيل هذا البيت، من ممر ندخل منه للبيت الدمشقي.. والذي يسمى "**الخوخة**"، ولا عجب إذ ترى الشامي المسلم يدخل برجله اليمنى مردداً قوله: "باسم الله" ثم "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، ففي ذلك وصلٌ واتصال واتباع لسيد البرية.

ثم امشِ.. تصل إلى فسحة مفتوحة إلى السماء، تدفعك لذكر الله بقولك: "سبحان الله"، حيث تجد الأشجار والنباتات والزهور والورود الشامية، كقطعة من الغوطة، تنتظرك مستقبلة إياك لتردد "الحمد لله"، فبالحمد والشكر تزيد النعم، واحذر أن تنشغل بالتمتع عن شكره تعالى فتنسى مُنعم هذه النعم القادر...

ثم تابع تجد ما يسمى "**الليوان**" وغرف الضيافة والاستقبال، وقد جعل الشاميون من موائد ضيافتهم مجلس ذكر لله ومدارسة لحديث رسول الله، أما موائد الغيبة والنميمة والسخرية التي نراها اليوم، فهي باب موصول بالشيطان يبعدك عن مقاصد الشريعة في إعمار الأرض والإنسان بالخير...

ثم امضِ تجد منشر الغسيل، ويسمى" **المشرفة**"، فقد شاع في دمشق استخدام الشرفات المطلة على الحارات من الأعلى بنوافذ واسعة....

أما عن وسيلة التدفئة في البيت الشامي، فقد كانت موقداً نحاسياً أو حديدياً يُملأ فحماً ويوقد خارج البيت إلى أن يتطاير منه الغاز ليؤتى به إلى الغرفة للتدفئة...

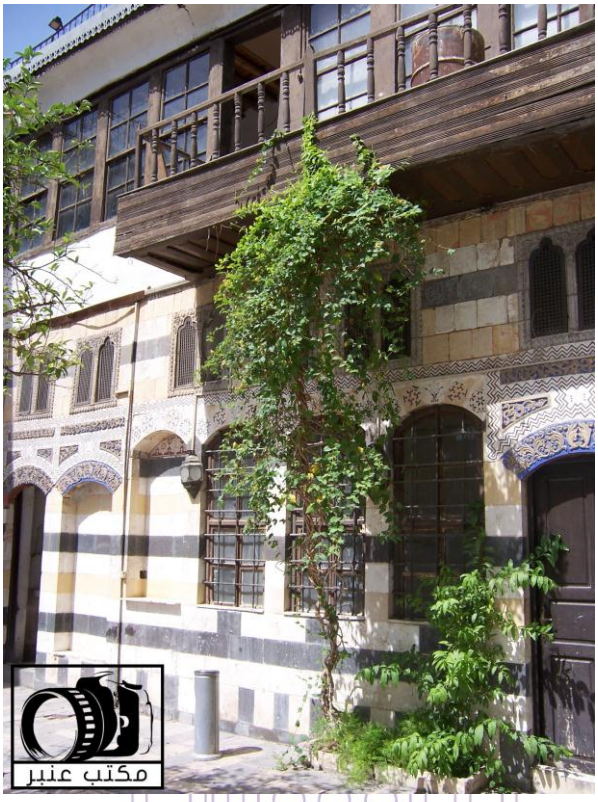

كما تجد الروائح العطرة الزكية التي تفوح من شجر الياسمين والتوت والليمون والبرتقال، تدعو من أدبر عن عبادة التأمل والتفكر أن يُقبل على المولى بالإنابة والترديد: **ما أحلى الرجوع إليه!**

ويلاحَظ اهتمام أهل دمشق بالزخرفة والزينة، يسبقها زينة في القلب بنية طيبة وابتسامةٌ يؤجرون عليها.. فقد أفرزت هذه البيوت قيماً أخلاقية حضارية مُستقاة من السنة المطهرة الشريفة، فهي مصدر جمال بني الإنسان.

فكن طيب النفس في نيتك مع الخلق مهما كان خلافك معهم.. واجعل من الدعاء بسريرة صافية لك ولهم عنواناً لحياتك، فلا يليق بأرض الشام التي أنت من أهلها إلا الصفاء والنقاء، وكن ممن قال فيهم المصطفى: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

قد ظلت هذه البيوت وحاراتها تعيش بسكينة واطمئنان، إلى أن تحول مع الأيام هذا الجوهر الثمين من العنوان إلى أمر ثانوي لا يُؤبه له، ويصبح الأساس هو حب الذات والانتصار للنفس وهواها بأشكال وتدابير شتى، وليستبدل الشاميون قيمهم الأخلاقية المحمدية بجلسات لإضاعة

الوقت، حيث جعلوا من التلفاز مصدر شرعهم فعطلوا العقل والهمة ونسوا كتاب الله وأن أول ما نزل من كلام الله تعالى: ((اقرأ باسم ربك الذي خلق))، وبدأ الخلط بين قيم ومبادئ أصيلة اشتُهر بها أهل الشام، وبين أعراف وتقاليد بالية مبعثها هوى النفس، لا يردعها أو يخفف من حدة شرها إلا مراجعة مستمرة مع الخالق...

وانشغل الشاميون بالمسلسلات وثقافة الانتقام ومكائد الكنّة والحماة، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً....))

هذا وإن من الألطاف الإلهية أن جعل الله عز وجل ألطافه تتزايد في شهرٍ مبارك ميزه المولى بروحانية رائعة لا يشعر بها إلا من قصد نسائمها الايمانية بالعمل الصالح والقول النافع، ألاو هو شهر رمضان، فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه))

فاحذر أيها الشامي من مكيدة المسلسلات التي تُحاك في هذا الشهر الفضيل، واجتهد بأن تكون حيث يريدك نبيك وربك جل جلاله... فدمشق والشام تتفرد عن بقية مدن العالم بعادات وتقاليد ترغب في طلب الرضى من المولى بصنوف وأنواع من الوسائل الراقية، فمصدرها حب الخير لكل الناس.. لأن أحبهم إلى الله أنفعهم إلى عياله ...

هذه المسلسلات تريد أن تُقصينا عن التعرض لنسمات روحانية إيمانية قادمة إلينا من فوق سبع سماوات، ترشدنا لما يرضي الله ورسوله، وتسلب منا مشاعر وأحاسيس محفزة نحن بحاجتها لرسم أحداث حياتنا ولتشوش علينا فنعيش مشغولي البال...

ألا واسألوا أسلافنا الذين عايشوا أحداث دمشق في مطلع القرن العشرين، كيف أولَوا المناسبات الدينية اهتماماً كبيراً، فهم يستقبلون العام الهجري بالتضرع والدعاء، ويُعدّون أكلة بياض – رز بالحليب مثلاً– في أول شهر محرم، وفي أشهر رجب وشعبان ورمضان تكثر الطاعات لله تعالى، كما تكثر حلقات الأذكار والأوراد وزيارة قبور الصالحين .. وفي ليلتي الإسراء والمعراج والنصف من شعبان يجري الاحتفال بقراءةٍ لمولد النبي صلى الله عليه وسلم في الكثير من المساجد والبيوت.. وقبل رمضان

بأيام، كانوا يقومون بنزهات إلى الغوطة والربوة ويسمونها "تكريزة رمضان" لوداع أيامهم العادية والإعلان عن الدخول في شهر المنافسات الإيمانية، ويبدأ الشهر المبارك بإثبات رؤية الهلال وإضاءة قناديل المآذن، لتنعكس روحانية الشهر فيُقبِل الناس على الطاعات في المساجد والبيوت بحب واشتياق، مهللين مكبرين فرحين، فمنهم من يصلي التراويح بتلاوة جزء كامل من القرآن ومنهم من يصلي في كل ليلة بختمة كاملة.. ويبلغ الاحتفاء ذروته بإحياء ليلة القدر... ولا ننسى "المسحراتي"، فلكل حي مسحّر مزود بالطبلة والفانوس والسلة، ينقر ويوقظ مردداً عبارات يُذكّر الناس بها بالله وبما عليهم حيال الفقراء..

لكن عندما شاعت المسلسلات في شهر التقوى والإيمان، شُغل الناس بتفاصيل سلبية فردية لا يخلو مجتمع منها، ولا حتى في عصر النبوة، بل يكون الأجر والثواب على قدر المشقة في مجاهدة النفس للوصول إلى ما يريد منا سيد الخلق.

وها هو **الشهيد السعيد** علامة العالم الإسلامي، الذي قدم روحه فداء نصيحته الصادقة المخلصة للشام وأهل الشام، يردد في آذاننا ناصحاً محذراً في إحدى خطبه: **"هناك مكيدة تُحاك لهذه الأمة ولعباد الله الصالحين خلال أحد عشر شهراً من العام، يعكف أهل هذه المكيدة من شياطين الأنس والجن على حبكها من أجل أن تُصب في هذا الشهر الكريم، ألا فاحذروا على أنفسكم من هذه المكيدة... ليقطعوا عباد الله عز وجل من التعرض لواجبات وآداب هذا ا لشهر المبارك ومن ثم ليتعرضوا لسخط الله، إن مكيدة المسلسلات التي تُصاغ خلال العام من أجل صبّها في هذا الشهر، من أجل جعلها حجاباً يحجب المسلم في هذا الشهر عن الله عز وجل، ليبوء بسخط من الله بدلاً**

من أن ينال الأجر العظيم.. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً.. فلا تنسيكم المسلسلات ذكر الله والإقبال على رحماته، فتتحول إلى سخط من الله عز وجل.. قاطعوا هذه المسلسلات فإقبالكم عليها هو سر نجاحها.. مما يستنزل غضب الله وسخطه، لا تسرفوا على أنفسكم وتوبوا إلى الله بكثرة الالتجاء إليه.. فلا تكونوا من المطرودين من رحمته، إياكم، إياكم".

إخوتي قراء هذه الزاوية:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها))، فالمنطق السليم يصدح: ألا فلتتعرّضوا لنفحاته بالآداب المطلوبة في هذا الشهر، واجتهدوا باجتناب كل وصف يباعدنا عن رضاه.

مرحباً بشهر الرحمة الغفران والعتق من النار، زينوا بيوتكم ومنازلكم بنية العَود الحميد لله، مرددين: أهلاً رمضان، عيد القلوب السليمة والأرواح الطاهرة النقية..

فصيام الشهر استجابة للمولى تُكسب صاحبها صفة التقوى، والتقوى لا تأتي بمجرد الإمساك عن الطعام والشراب، وإنما بأمور أخرى تقتضي النية الخالصة وحفظ اللسان والقلب: ((كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر))

لنتمعّن فيما كتب شيخنا الطنطاوي . رحمه الله . الذي قدم الشام ودمشق مع والده من طنطا بمصر فعشقها وكتب ذكريات رائعة عنها، وها هو يقول:

(يا مَن في دمشق:

تنشّقوا عبير الخلود من دمشق، فما تلقون إن فارقتموها مثلها، مثل ميزاتها... وهذي المنارات وهذه القباب، والمسجد الذي تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم وارتدت عنه العصور وهو شامخ، يروي لأبناء الأرض تاريخ الأرض مذ كان معبداً وثنياً إلى أن صار كنيسة وإلى أن غدا جامعاً إسلامياً، فترفقوا في سيركم على ثراها، فإن تحت كل حجر تاريخ بطولة.. فالجنان في غوطتها، والأنهار في ربوتها، والسهل في مزّتها، والبساتين تحف بها.... فتأمل أيها الدمشقي وانظر كيف آل الأمر عندما بالغنا في الاهتمام بالمظهر أكثر من الجوهر).

متى يا زمان يعود بلدي دارَ السلام والجمال والجلال، يجذب إليه أهل البر والصدق والوفاء؟؟؟

هيا يا إخوتي نجدّد النية خالصة نقية، ونجعل رضى الله ورسوله فوق أي اعتبار...

فلنستشعر قدسية خطاب الله ورسوله في أهمية إصلاح البيوت والمجتمعات بإصلاح النفس ومجاهدة هواها، وليكن بابنا إلى الله تعالى هو رسول الله، ومفتاح الوصول لرسول الله كثرةُ الصلاة والسلام عليه...

هيا نجدّد العهد مع الله ما دام في الأنفاس بقية، لنتدارك النعيم الذي ورثناه عن صفوة الشام الذين سطروا أروع السير، وإن من أراد الجمال والجلال، فإن الأخلاق النبوية تكفيه خير سبيل..

ولنتعلم يا إخوتي مِن العارف بالله، أبي يزيد البسطامي، الذي قدم دمشق عاشقاً لأحاديث المصطفى ، إذ يقول: " لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالا لله أن أذكره"!

ها هو شهر الخير والبركات يهلّ علينا ضيفاً، ينتظر منا الإقبال عليه بحب واشتياق وتعظيم، فلنستقبله بزينة التقى والتعظيم لله وما أنزل على نبيه، ولنتدارك الأيام فهي مستمرة بالمضي والفناء... ولنكثر من الاستغفار والتوبة بوعي وإخلاص، من قسوة قلب قد لامستنا فهوّنت علينا الذنوب والمعاصي وهجر شخصية النبي في بيوتنا...

وإن أول الخلاص، نبذُ الجهل بمنهج نبينا العظيم، ذاك المنهج الذي جعل من الخلوة مع حفظ اللسان سراً من أسرار نبوّته، ولننبذ تداول الشائعات والقيل والقال وفاحش الكلام... ففي قول نبينا لمعاذ بن جبل حكمة منشودة لنا، حيث قال: ((..وهل يُكبّ الناس على وجوههم في النار إلا من حصاد ألسنتهم)).

فاجعل، أيها الشامي، يا مَن جمعت في قلبك حب الله ورسوله، اجعل من لسانك الحصن الذي يعرف أين يقف ومتى يسكت خشية الانزلاق في غيبة أو نميمة يزينها له الشيطان بحجج وحجج..

فلنغتنم قبل أن تغتنمنا زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير وأبقى، ولتردّد في نفسك:

وكم بالشام من شرف وفضل ومرتقب لدى بر وبحر

بـلاد بـارك الرحمن فيها فقدسها على علم وخبر

إن السعي لنهضة حقيقية في الأرض تبدأ بك أنت أيها الإنسان، ومن داخل نفسك ... ففي قوله تعالى "ولو ألقى معاذيره" دليل على أن الإنسان سيحاول اختلاق أعذار وأعذار... ولا خلاص إلا بالتخلص من تيهنا عن معرفة ذواتنا البشرية، فما نحن إلا ضيوف وعبيد على هذه الأرض، وبين أيدينا الأمور المادية التي قد سخرها الله لنا كما قد وجهنا على الخير ودلنا إليه....

فأحسن ولا تتبع الهوى فتضلَّ وتشقى وتُشقي من حولك.

المصادر والمراجع:

- نزهة الأنام / للبدري
- ذكريات / للطنطاوي
- الحوليات الأثرية / لمديرية الآثار والمتاحف